دمشق

من ٥٣٨ قبل الميلاد إلى آخر القرن الثالث الميلادي

د. عدنان البني

في ذلك الزمن الطويل توالت على سورية(١) قوى من خارج المنطقة العربية : فارسية (أخمينية ٥٣٨ ـ ٣٣٣ ق.م) ثم يونانية (هيلنستية ٣٣٣ ـ ٦٤ ق.م) ورومانية (٦٤ ق.م ـ ٣٩٥ م) تولت هذه القوى شؤون البلاد وأمور الحرب والسلم . لكن أهل البلاد استمروا في تطوير ممالكهم واماراتهم ومشيخاتهم في عدد المناطق مثل تدمر وحمص وأرواد وصور ، وفي متابعة تطوير ثقافاتهم الوطنية ولهجاتهم . وكانت المراكز المدنية الهامة العامرة في البلاد تتصدرها دمشق التي كانت منذ نشأتها مدينة متميزة بموقعها الجميل المنيع وقدسيتها وبسمعة طيبة بقيت لها من أيام زعامتها للممالك في محاربتها اسرائيل والآشوريين .

كانت بلاد الشام الولاية الخامسة في الامبراطورية الفارسية الأخمينية . وفي المصطلح الأوروبي تسمى الولاية « سترابية » والوالي ستراب(٢) وكانت السترابية السورية مقسمة ادارياً الى المقاطعات نفسها التي عرفت في العصر السابق (أي الكلداني) وهي مقاطعة دمشق ، مقاطعة حماه ، ومقاطعة حوران الخ ... وكانت مدينة دمشق وكذلك أرواد وصيدا وحتى طرابلس تصبح بدورها عاصمة للولاية(٣) . وقد ذكر سترابون أن دمشق كانت أهم مدينة في سورية ومركزاً للقوات الفارسية(٤) . وثمة حادثتان تاريخيتان تؤيدان القول بأن دمشق كانت هي المركز الاداري الأكثر أهمية ومقر الوالي . فقد ذكر يوسيفوس(٥) أن الملك الفارسي قمبيز الثاني (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م) ابن كورش الثاني ، الذي احتل

مصر بمساعدة أشمون عزر ملك صيدا ،مات في دمشق حيث كان مقيماً عند عودته من مصر • أما الحادثة الثانية فهي ما رواه أريانوس[٦] من أن دارا الثالث بينما كان يتهيأ للمعركة مع الاسكندر المكدوني أرسل رياشه ومتاعه وكنوزه ومؤونته وخيله ورجله وحاشيته الى دمشق دون غيرها ولم يبق معه إلا أهل بيته وخاصته •

وفي اعتقادنا أن اختيار دمشق لم يكن مصادفة أو للأسباب التي يقدمها بعض المؤرخين[٧] • فحين يقرأ المرء أنه بعد هزيمة الملك الفارسي دارا الثالث أرسل الاسكندر المكدوني قائده بارمينيون الى دمشق لوضع اليد على ما خزنه هناك دارا استلم من الحرس ٢٦٠٠ تالانت من النقود و ٥٠٠ باونداً من الفضة غير المضروبة[٨] ، وضع اليد على ٧٠٠٠من دواب الحمل الثمينة ، كما حاز على ٣٢٩ قينة و ٣٠٦ من الطباخين و ١٣حلوانياً و ٧٠ ساقياً و ٤٠ من صناع العطور[٩] • عندما يقرأ المرء ذلك كله يتساءل أين كانت تقيم هذه الحاشية الهائلة وما يتبعها من رياش ومتاع وأدوات ومواد ومؤنة إن لم يكن هناك في دمشق أو في غوطتها وجبلها قصور منيعة ومخازن فسيحة ومؤن وفيرة ، الأمر الذي لا يتوفر إلا في مركز له الوزن السياسي والاداري والاقتصادي اللازم وبالتالي المركز الذي هو العاصمة أصلاً •

لم يترك الفرس الأخمينيون أي آثر معماري في دمشق اللهم إلا تاجي عمود من الطراز الفارسي هما ما تبقى من قاعة على الطراز الفارسي (أبادانا)[١٠] ، ولم تسعفنا أعمال التنقيب في دمشق ومنطقتها بدلائل أثرية أكثر من هذا عن ذلك الزمن رغم استمراره أكثر من قرنين! ٥٣٨ ـ ٣٣٣) ولم يعثر على شيء من آثار عبادات الفرس مع ما ذكر من أنهم أدخلوا عبادة ربتهم « اناهيت » الى المدينة[١١] ، ويذكر أيضاً جلبهم لدمشق نوعين من العنب • ولم تصل إلينا وثائق مكتوبة تتعلق بدمشق من هذا الزمن •وقد يعزى نقص النصوص الى أن اللغة الآرامية المستخدمة في الادارة الفارسية كانت تكتب على ورق البردي وغيره من المواد السريعة البلى التي لا تدوم دوام رقم الطين فبادت خلال القرون ولا يبعد أن نقع على بعضها يوماً ما •

ونعرف بصورة غير مباشرة أن معبد دمشق الكبير ظل خلال ذلك العصر موضعاً

للتقدير والاحترام ومركزاً يقصد إليه بالقرابين والهبات والتقدمات ومن ذلك ما رواه المؤرخ البابلي برخوشا عن إهداء تمثال لأفروديت آنايتس للمعبد المذكور في تلك الفترة[١٢] .

*   *   *

وفي تشرين الأول ٣٣٣ ق.م اثر هزيمة جيوش الفرس أمام الاسكندر المكدوني في معركة ايسوس ، وبعد مقاومة محلية شديدة للاسكندر دامت سبعة أشهر في صور وشهرين في غزة ، واستيلائه في دمشق على كنوز الملك الفارسي المهزوم دارا الثالث ورياشه وخيله ورجله ، أصبحت الولاية السورية خاضعة كلها للظافرين الجدد . لكن الأمر كان مختلفاً في بعض المناطق التي لم تخضع في الأصل تماماً للفرس ، أو ظلت مستقلة ، كالأنباط الذين حاول انتيغونوس الأعور أحد قواد الاسكندر الاستيلاء على بلادهم فصدوه . وعاود الكرّة ابنه ديمتريوس فباء بالاخفاق أيضاً . واستطاع الأنباط في ظل خلفاء الاسكندر من سلوقيين وبطالمة أن يمدوا تخومهم الى دمشق نفسها كما سوف نرى .

إن التاريخ الرسمي للدولة السلوقية يبدأ في عام ٣١٢ ق.م ولكن هذه الدولة التي امتدت من المتوسط إلى نهر السند ، وكانت سلالتها تعرف باسم السلالة السورية ، لم يبدأ حكمها رسمياً في سورية إلا في ٣٠١ ق.م ، بعد جلاء البطالمة وتخليهم عن احتلالهم المؤقت لسورية . ومؤسس السلالة هو سلوقس نيكاتور (أي الظافر) . وقد جعل عاصمتها أنطاكية التي أسسها على اسم أبيه انطوخيوس . وتقلب على الحكم من هذه السلالة ١٨ ملكاً دام حكمهم أكثر من قرنين انقضيا تقريباً في الحروب مع البطالمة في مصر الطامعين بالسيطرة على سورية بسبب أهمية موقعها ، وبخاصة موانئها الستراتيجية والتجارية التي تؤمن السيطرة على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . وعدد هذه الحروب خمسة وعرفت باسم « الحروب السورية » .

سيطرة البطالمة عملياً وفي غالب الأحيان على سورية الجنوبية ، وكانت دمشق هدفاً من أهدافهم الأساسية ، لأن من يسيطر عليها عملياً يؤمن السيطرة على المنافذ الى فلسطين ومرافىء البحر المتوسط وبلاد الأنباط وبادية الشام .

واستطاع الملك البطلمي بطليموس الثاني (فيلادلفوس) الاستيلاء على دمشق في عام ٢٧٦ ق.م وأقام فيها معمّرة بطلمية أطلق عليها اسم « ارسينوه »

وهذا الاسم شمل المدينة أو بعضاً منها[١٣]. ثم استعادها انطوخيوس من سلوقس. وكان الاستيلاء على دمشق أهم أحداث الحرب السورية الكبرى.

ومن الأحداث التي لها علاقة بدمشق أيام السلوقيين أن الملك السلوقي انطوخيوس التاسع السيزيكي (١١٢ ـ ٩٦ ق.م) وقد عانى من الثورات والفتن في أنطاكية، اتخذ دمشق عاصمة له ثم عاد الى أنطاكية فيما بعد. وحوالي ٩٠ ق.م أقام الملك السلوقي ديميتريوس الثاني معمَّرة يونانية جديدة في دمشق سميت ديميتريياس. وانسحب آخر ملوك السلوقيين انطوخيوس الثاني عشر الى دمشق أيضاً[١٤]. وعلى أحد نقوده من الدراهم المربعة نرى على الوجه الثاني من النقد صورة الرب حدد (رب معبد دمشق) وهو ملتح واقف يكتسي بثوب طويل محاط بأسدين ويحمل، مثل بعل البقاع، سنبلة في اليد اليسرى باعتباره رب الخصب[١٥]. وفي متحف دمشق مجموعة هامة من النقود المضروبة بدمشق في العصر السلوقي[١٦]، وفيما ذكرنا دلائل واضحة على أن دمشق كانت بمثابة عاصمة ثانية للدولة السلوقية.

دخلت دمشق في دولة الأنباط العربية حوالي ثلاثة عشر عاماً (٨٥ ـ ٧٢ ق.م). فقد استفاد الملك الحارث الثالث[١٧] من ظروف الدولة السلوقية وتفككها التدريجي فاستولى على دمشق واقليمها وعلى سهل البقاع عام ٨٥ ق.م. وقد رحب به الدمشقيون وقلدوه الملكية عليهم وضربوا النقود باسمه. ونجد على هذه النقود التي اتخذت الشكل السلوقي صورته واسمه على وجه النقد وصورة الربة تيكه حامية المدينة أو صورة ربة النصر على وجه الآخر. وقد بقيت دمشق في ممتلكات الأنباط كما ذكرنا حتى العام ٧٢ ق.م حيث توقف ضرب النقود النبطية. ثم استولى على دمشق تيغران ملك ارمينيا الذي توسع في سورية مستفيداً أيضاً من ضعف الدولة السلوقية. وضرب تيغران النقود على الشكل السلوقي أيضاً، وظلت هذه الحال حتى ترك تيغران سورية عندما علم أن لوكولوس الروماني احتل بلاده ارمينيا.

ويُنسب للأنباط انشاء حي جديد أو منطقة يسميها مؤرخو العرب « النبايطون ». كما أن هناك من يجعل في مكان نهر يزيد الأموي نهراً سابقاً

شـقه الأنبـاط[١٨] الا أن نسـبة هـذا « النبايطون » الى الأنباط القدامى أمر لا يتعدى المشابهـة اللفظيـة والنسـبة للنبيط أكثر صواباً في رأينا[١٩] .

ويبدو أن العرب الايطوريين هاجموا دمشق بعد ذلك كمـا حاولت الكسندرا أرملة اسكندر جانوس استغلال الفرصة وأرسلت حمـلة عسكرية مدعية حمايـة دمشق لكنها فشلت . وظل وضع مدينة دمشـق غامضـاً حتـى مجـيء بومبـي الرومانـي . ويذكـر أن الدمشقيـين أصـدروا في ٦٩ ق.م نقـوداً باسمهـم محاولين توكيد استقلالهم[٢٠] . واستعاد الأنباط دمشـق في أيام الحارث الرابـع (٩ ق.م ــ ٤١ م) . وقصر المدة يسوّغه البعض بعدم العثـور على نقود نبطيـة مضروبة بدمشق من تلك الفترة[٢١] .

وخلال حكم تيغران كان العرب الايطوريـون في البقـاع من القـوة بحيث كانوا يسيطرون ، فضلا عن البقـاع ، على طرابلس وعرقا وجبيل ويهـددون دمشق كما ذكرنـا من قبل الأمـر الذي اضطر تيغران الى الاعتراف بامارتهـم التي كان مركزهـا كالسيس (مجـدل عنجر) كما سمح لهم بضرب النقود التي تحمل ألقابهم بصفتهـم « تتراكيـين » وكهاناً عظاماً في معبد بعلبك[٢٢] .

في هذه الفترة التي نحن بصددها كانت دمشق مدينة مزدهرة وبمثابة عاصمة ثانية . وغدت أحياناً عاصمة أولى كما مر بنا من قبل . وفيها طبقـات عديدة من السكان أساسها آرامي / عـربي توضعت معها فئات من اليونانيين المستشرقة (أي هلينستيون) وأقليات أخرى مـن الفئات العرقية والمذهبيـة التي تتشبث عادة بالعواصم والمراكز الكبرى طمعاً في الكسب والمغامرة والغنى . وقد امتدت دمشق في أيام السلوقيين في كل الاتجاهات، وبخاصة الى شرق المركـز الآرامـي القديم الذي كان يشكل مرتفعاً يتنسمه معبد حدد الذي أصبح يسمى معبد زفس في هذا الزمن الهلينستي . ومن المتفـق عليه ان تنظيـم عمران المدينـة بشـكل مقاسم مستطيلة يتخللها طرق متصالبـة حصل في ذلـك الزمـن[٢٣] وقـد زودت بأغورا (سـوق عامة ومكـان اجتمـاع المواطنين) شرقي المعبد ، يـرى البعض أن مكانها في زقاق الصحة ، أو في ساحـة الدوامنة[٢٤] . كما زودت بمسرح ، وفي دراسة حديثة اتضح ان المناطق الزراعية في شمال وشمال شرق دمشق الهلينستية

كانت مقسمة تقسيمات مستطيلة ومماثلة لتقسيمات المدينة • على ان كل هذه الأمور لم تزل موضع جدل بين مختضي العمران القديم • كما ان مساحة دمشق القديمة غير محددة حتى الآن[٢٥] •

وفي ذلك الحين على الراجح اتخذ نهر بردى مع اسمه القديم « ابانا » أو بدلا عنه نهر الذهب (كريزورواس) وأخذت « الفيجة » اسمها الباقي حتى الآن ومعناه في اليونانية النبع • ولا شك في أنها ترجمة لكلمة آرامية مماثلة مثل « أفقا » أو « عينا »[٢٦] على ان استجرار المياه منه في أطراف الجبل غير محدد الزمن وقد يكون من أيام حكم الرومان •

حصلت منازعات عنيفة حول وراثة العرش السلوقي أدت الى انحلال نهائي للدولة السلوقية • وكان الرومان منذ القرن الثاني قبل الميلاد يطمحون للاستيلاء على شرقي البحر المتوسط والبلاد المحيطة به • وفي بداية القرن الأول قبل الميلاد أصبحت سورية ثمرة يانعة • لكن روما كانت منشغلة داخلياً وخارجياً وكان الخطر الكبير الذي يدهدها هو القراصنة في البحر المتوسط الذين هددوا تجارتها وامداداتها ومشاريعها بشكل عام • وعهد الى بومبي بمهمة التخلص من القراصنة وأنهى هذه المهمة بشكل فعال ومن ثم احتل سورية في ٦٤/٦٣ ق•م وأعلنها ولاية رومانية ممتدة من جبال طوروس الى غزة •

وكانت سورية آنئذ أشبه بموزاييك من الدويلات والمدن وكان في جنوبها نزاع دائم بين الأنباط واليهود وبين اليهود أنفسهم •

★ ★ ★

دخل بومبي دمشق في ربيع ٦٣ ق•م ومن الأمور التي اهتم بها أنه أضاف الى الولاية الرومانية هذه المدينة التي كانت تشكل حلفاً تجارياً مع عشرة مدن منها عمان وجرش وجدرة (أم قيس) وديون في الجولان وغيرها • ويعرف هذا الحلف باسم الديكابوليس (أي المدن العشر) وأصبحت دمشق ترجع في شؤونها الى الوالي الروماني • وقد ولّى بومبي على سورية سكوروس وكان مقره دمشق[٢٧] •

لن نخوض في تفاصيل الأحداث الدامية التي جرت بين القادة الرومان حتى قيام النظام الامبراطوري في روما واعتلاء اوكتافيوس اوغست العرش الروماني • لكننا نود أن نذكر أن قوات عرب سورية من آل شمسيغرام ومن الايطوريين والأنباط والايدوميين هي التي أنجدت يوليوس قيصر عندما حوصر ووقع في مأزق قاتل وكاد أن يغرق في ميناء الاسكندرية !

وفي مطلع زمن الولاية الرومانية كان التأثير النبطي باقياً في دمشق . ومن شواهد ذلك عبادة الرب ذو الشرى فيها[٢٨] . على أن العبادة المركزية في دمشق ظلت للرب حدد الذي توحد مع زفس في الزمن السلوقي ومع جوبيتير في الزمن الروماني . وكان أمراء دمشق وسراتها يعتبرون أنفسهم كهان حدد / زفس / جوبيتير . وسارع الأباطرة الرومان الأول في الاهتمام بتوسعه المعبد القديم الذي كرّس باسم « جوبيتر الدمشقي »[٢٩] كما فعلوا في معبد بعل البقاع (بعلبك) . كما شجعوا تأسيس معابد جديدة تتوحد فيها العبادات ويوحد فيها الأرباب (نبو = أبولون ، اللات = أثينا الخ) وكان هدفهم في رأي البعض رومنة المعتقدات السورية[٣٠] . على أن الدمشقيين أسهموا اسهاماً كبيراً في بناء المعابد ، خلال أكثر من قرنين كما يظهر من الكتابات التي عثر عليها في بقايا حجارة المعبد القديم[٣١] . وطراز المعبد نفسه سوري باجماع الباحثين في تاريخ العمارة القديمة[٣٢] .

وكان معبد جوبيتير آنئذ محور الحياة الدينية والاقتصادية لمدينة دمشق . وحتى عشية انتهاء الوثنية في القرن الرابع الميلادي نجد من يصف دمشق بالمدينة المقدسة والجليلة وأنها مدينة جوبيتير الحقيقية التي تستمد تفوقها من جمال احتفالاتها وعظمة معابدها[٣٣] .

وفي حوالي منتصف القرن الأول الميلادي تعود دمشق للأنباط مرة ثانية وذلك في عهد الحارث الرابع كما ذكرنا من قبل[٣٤] وكان ذلك في أيام الامبراطور كاليغولا وبالاتفاق مع روما . ثم تعود الى ولاية سورية في أيام نيرون (٥٤ ــ ٦٨ م) . وخلال الفترة الفلافية (٦٩ ــ ٩٦ م) تمتعت سورية بمزايا السلم . وفي أيام السلالة التالية ، السلالة الانطونية كان والد الامبراطور تراجان واليا على سورية . كما كان تراجان نفسه محامياً عسكرياً فيها قبل أن يصل الى العرش (٨٩ ــ ١١٧ م) . وفي عهده حدثت أحداث هامة في سورية وفي مقدمتها إنهاء دولة الأنباط وانشاء ولاية في مكانها أطلق عليها اسم « الولاية العربية » (بروفانسيا آرابيا) جعلت عاصمتها بصرى . وعين تراجان المهندس السوري المعمار ابولودور الدمشقي وزيراً للأشغال العامة فبنى روما الجديدة وأروع مبانيها فضلا عن المرافىء الرومانية والجسور . ويرى بعض الباحثين في المنجزات التي

أداها هذا المهندس العبقري أنها في جمالها ورحابتها تأثرت بما كان عرفه مبدعها في مدينة دمشق[٣٥] .

وفي عهد تراجان أنشأت بين دمشق والبحر الأحمر طريق استراتيجية تمر ببصرى وعمان ومأدبا وقد عرفت بالطريق الجديدة (فيانوفا) . وعندما خلفه هادريان على عرش روما (١١٧ ـ ١٣٨ م) رفع مدينة دمشق الى مرتبة أم المدن (ميتروبول) . وكانت هذه المدينة قد اشتهرت بصناعة السلاح ، ويشيد بليني من أهل القرن الأول بخصب ريف دمشق وبخوخها الممتاز . ولدمشق مزايا كثيرة منها الموقع التجاري الفريد بين الجنوب والبحر والبادية وفي قلبها تدمر . وتمتعت بمزيد من السلام بعد أن أخمد هادريان ثورة باركوخيا اليهودي وتحول القدس الى معمرة رومانية[٣٦] . ومن أجل اضعاف سلطة الولاة قسم سبتيموس سيفيروس ١٩٤ ـ ٢١١ م سورية الى سورية المجوفة مع فرقتين عسكريتين ، وسورية الفينيقية التي جعلها ولاية بريتورية مع فرقة واحدة وضم دمشق الى هذه الولاية فكانت بمثابة عاصمتها وفي عهد هذا الامبراطور البرقاوي وزوجته الحمصية جوليا دومنا وسلالته عرفت دمشق نهضة معمارية باهرة وتنظيما عقارياً وتقسيماً مئوياً لحقولها وبساتينها . وكان معبدها العظيم قد اكتمل هيكله المركزي وأسواره وبخاصة تزييناته في عهد هذه السلالة[٣٧] . وفي عهد اسكندر سيفير أحد أفراد هذه السلالة مُنحت دمشق لقب المعمَّرة الرومانية الذي يسويها بروما في الحقوق والواجبات . وتقدمت سورية بشكل عام وقبلها دمشق على جميع الولايات في تلك الفترة ، ففي غضون ثلاثين عاماً صعد الى عرش روما ثلاثة أباطرة سوريين الأول ايلاغبال (اله الجبل) كاهن معبد الشمس الأكبر في حمص (٢١٨ ـ ٢٢٢) والثاني ابن خالته الاسكندر سيفير (٢٢٢ـ٢٣٥) والثالث فيليب العربي ابن شهبا (٢٤٤ـ ٢٤٩) . وفي الستينات من هذا القرن الثالث كان أذينة العربي التدمري حاكماً لسورية . وفي السبعينات منه كانت الملكة زينب تؤسس امبراطورية قلبها بلاد الشام وفيها مصر والأناضول .

ويتحدث المؤرخ اميانوس في القرن الرابع وملالاس في القرن السادس عن أهمية دمشق السياسية والحربية خاصة في أيام الامبراطور ديوقلسيان الذي

أسس فيها معامل أسلحة ومستودعات للمهام الحربية[٣٨] في نهاية القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع الميلادي ٠ ونترك أحداث القرن الرابع الميلادي لبحث آخر ٠

★ ★ ★

اتسعت دمشق وتدفق عليها الناس من كل حدب وصوب منذ القرن الأول الميلادي مع اتساع معبدها القديم وازدهار تجارتها ٠ وكانت فيها حركة تنصر حول القديس حنانيا ٠ وفي دمشق نفسها ، أيام حكم الأنباط الثاني[٣٩] ، تنصر شاول اليهودي القادم اليها لقمع المسيحيين فسمي القديس بولس ، ولذلك أصبح مصطلح طريق دمشق يعني لدى المسيحيين طريق الايمان والهداية ٠

وبسبب اكتظاظ دمشق بالسكان وتداخل القسم الآرامي بالامتداد الهيلنيستي ، كان لا بد من وضع مخطط جديد أيام الرومان ٠ اكتمل هذا المخطط أيام الأسرة السيفرية كما ذكرنا من قبل ٠ وكان التخطيط الجديد شطرنجياً يقوم على محورين متعامدين هما شارعان رئيسيان ، شرقي غربي يسمى عادة باسم الدوكومانوس ماكسيموس ، والثاني شمالي جنوبي يعرف باسم كاردوماكسيموس ٠ وأقيمت شوالع وطرقات موازية لهما طولاً وعرضاً ، عرضها يتراوح في دمشق بين ثلاثة وخمسة أمتار ٠ وهذه المسالك تحصر بينها جزيرات سكنية مقياس كل منها حوالي ١٠٠ م × ٤٤ م ٠ وما زالت الشوارع والطرقات المتفرعة يمنة ويسرة من الشارع المستقيم (مدحت باشا) موجودة ، وهذا الشارع هو الدوكومانس ماكسيموس بطول حوالي ١٥٠٠ م ٠ وكان يعرف في دمشق قديماً باسم فياريكتا (أي الطريق أو الشارع المستقيم) ٠ وكان مبلطاً ومؤلفاً من جادة وسطى ورصيفين للمشاة وفوقه مصلبات وأقواس ٠ وكان هنالك شارع مواز له من الناحية الشمالية يربط بين الآغور (الفوروم) والمعبد من جهة باب جيرون ٠

وأحيطت دمشق بالأسوار الجديدة[٤٠] التي تضم مساحة تنوف قليلا عن مائة هكتار لا نعرف ان كانت مسكونة كلها أم كانت فيها بعض المساحات الخضراء ٠ ومد الى المدينة من نهر بردى فرعان هما نهر قنوات ونهر بانياس[٤١] . وبقيت في المصادر العربية الاسلامية أسماء بعض الأحياء التي كانت أيام الرومان ، كحي الديماس وحي الفرناق وحي الفسقار والأخير في الشارع الطويل[٤٢] ٠

وثمة نقاط كثيرة يحتاج الباحث لجلائها حول دمشق القديمة وبخاصة أيام الرومان ، وفيما عدا موقع المعبد القديم ليس لدينا يقين عن مكان المعالم الرئيسية

لتلك المدينة • والسؤال يتردد دوماً حول وجود قلعة سابقة أم لا ، وحول مسقط السور أينطبق على سور نور الدين أم يختلف عنه • ومن الصعب أن تجري أعمال التنقيب وبخاصة في مدينة مكتظة بالبناء والسكان والأسواق مثل دمشق • ولا بد من انتظار فرصة سانحة كحفريات أو أعمال عامة وخاصة ، ومن ذلك عملية اكتشاف قوس الخراب ورفعه الى المنسوب الحالي •

أما العملية الثانية فكانت أيضاً في حي الخراب(٤٣) شمال القوس أمام بطريركية الروم والأرثوذكس في مكان استملكته أمانة العاصمة لفتح شارع يصل القيمرية بالشارع المستقيم وبدأت بتهديمه في ١٩٦٦ ، فظهرت معالم أثرية ورغبت المديرية العامة للآثار والمتاحف في استجلائها وقام بالمهمة الأستاذ نسيب صليبي •

ظهرت أربعة قواعد مرتفعة فوقها أعمدة أربعة وبين العمودين الأوسطين انفراج أوسع ، الأمر الذي يستدل منه أننا إزاء مدخل لبناء هام له ثلاثة مداخل وهو ذو طبيعة عامة والأرجح أنه معبد له اتجاه معبد جوبيتر نفسه ومنفتح على الجهة الشرقية • وهو مبنى وثني وليس من منشآت الفترة المسيحية ويطل على الشارع العرضاني (الكادر ماكسيموس) من الجهة الغربية • والتاريخ المقترح له هو أواخر القرن الثاني الميلادي ومطلع الثالث أي في أيام السلالة السيفيرية السورية(٤٤) ، وقد اتضح من أعمال التنقيب أن الكنيسة المريمية قامت على أنقاض كنيسة أقدم دلت عليها بقاياها المعمارية وبخاصة بقايا الفسيفساء الأرضية • على أن العمليات في تلك الأرجاء لم تظهر أي كسر فخارية أو دلائل أخرى تعود لزمن أقدم من أيام الرومان ، ومن المؤكد أن دمشق الآرامية لم تمتد الى تلك النواحي(٤٥) •

ومن المعالم التي تذكر من الفترة الرومانية ملعب (سيرك) في جهات شارع بغداد ، وكذلك مقبرة بعيدة عن المدينة الى الشمال والشرق • وعلى الرغم من أن القانون كان يمنع قيام المقابر على بعد أقل من ميلين عن المدينة ، فان مقبرة ضخمة كانت تمتد لصق السور الغربي وتنتشر جنوباً حتى باب السريجة ، ووجدنا مدافن منها في منطقة القصر العدلي وعلى طول شارع النصر • ويظهر أنها امتدت

خـلال العصر البيزنطي الى الغرب • وبلغ أوســع امتداد لها في العصر العربي الإسلامي ووصلت لما بعد ثكنة الحميدية (الباب المركزي للجامعة السورية) وبين وقت وآخر يعثر فيها على عدد من المدافن وآخرهــا في منطقــة المتحف أمــام دار التوليــد •

★ ★ ★

الحواشـــي :

١ ـ أيام الفرس الأخمينين كان يطلق على بلاد الشام اسم « عبر النهر » أما اسم سوريـة فهـو لفظ متطـور مـن « آثـورا » الأخمينيـة •

٢ ـ وهي محوّرة عن « خشاترابان » وتعني « ملك » في الفارسية القديمة وهي معادلة لمرزبانة الفارسية المألوفة في المأثورات العربيـة •

٣ ـ كانت مدائن الساحل الكنعانية (الفينيقية) لها اهميةاستثنائية لدى الفرس بسبب أساطيلها وخبراتها بالبحار وذلك ضروري لمشاريع الفرس في اليونان ومصر والبحر المتوسط بشكل عام •

٤ ـ ١٦ ، ٢ ، ٢٠ •

٥ ـ الآثـار ١١ ، ٢٠ •

٦ ـ ٢ ، ٦ ، ٣ •

٧ ـ يرى المؤلف فوكس في كتابه الهام عن الاسكندر ـ ص ١٦٥ ـ أن الأمر محيّر لكنه يرجع أن السبب هو القرب من طرابلس التي رست عندها مراكب المرتزقة المولجة بالنقل • (مفصل عنوان الكتاب في ثبت المراجع) •

٨ ـ كل تالنت يساوي ٦٢ كغ وكانت النقود المصادرة وحدها تعادل دخل مملكة مكدونيا سنة كاملة •

٩ ـ المرجع السابق ، ص ١٧٦ •

١٠ـ اورد ذلك وتزنجر وولزنجر في كتابهما الشهير (دمشق، المدينة القديمة) ص ٤١ (العنوان في ثبت المراجع) وأحد هذين التاجين على الأقل معروف في متحف دمشق وهو مزين في كل زاوية من زواياه برأس ثور •

١١ـ ذكر ذلك ج•م• كوك في كتابه عن الامبراطورية الفارسيةص ١٥٠ (العنوان الكامل في ثبت المراجع) •

١٢ـ عن رينيه دوسو ، معبد جوبيتر الدمشقي ، سيريا ، ٣ ، ١٩٢٢ ، صفحة ٢٢١ ، حاشية ٥ • (راجع ثبت المراجع)•

١٣ـ سليم عبدالحق ، الفن الاغريقي وآثاره المشهورة في الشرق ، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق ١٩٥٠ ، ص ١٨٣ •

١٤ـ دام حكمه في دمشق من ٨٨ الى ٨٤ ق•م وكان يتهيا لحملة على الأنباط عندما اغتنم أخوه فيليب الفرصة فهاجم دمشق واستولى عليها مؤقتا بمساعدة قائـد حاميتها ثم دب الخلاف بينهما ، وعندما خرج فيليب لحضور سباق الخيل اغلقت الأبواب في وجهه وعاد أخوه للمشق •

١٥ـ رينيه دوسو ، معبد جوبيتر الدمشقي ، مجلة سيريا ، العدد ٣ ، ١٩٢٢ ، ص٢٢١ (العنوان الأصلي في ثبت المراجع) •

١٦ـ نشرها الأستاذ بشير زهدي في الحوليات الأثرية العربيةالسورية عام ١٩٧٦ ، ص ٧٣ وما بعدها •

١٧ـ الحارث (او حارثة) الثالث أشهر ملوك الإنباط هو ابن عبادة (او عبيدة الأول) خامس ملوك الانباط المعروفين حكم بين ٨٥ ـ ٦٢ أو ٦١ ق٠م على الراجح ويلقب بلقب فيلوهيلين (اي محب اليونان) وكان والده حقق نصراً على السلوقيين في النقب كما حقـق الحارث بدوره نصراً على اليهود المكابيين وحاصر القدس حصاراً شديداً وكادت تسقط لولا توسط الرومان (راجع بحثنا عـن الحارث الثالث في الموسوعة الفلسطينية) ٠ ويستنتج وجود الإنباط بدمشق قبل هذه الفترة ، في أيام الحارث الأول من نص في « جامع الكتابات السامية » الجزء ٢ ، رقم ٣٤٩ (عن كارلوس شد ، ص ٨٣) ٠

١٨ـ نيكيتا اليسييف ، الموسوعة العربية ، مادة دمشـق ، ص ٢٨٧ ٠ وذكر الدكتور شفيق الصفدي أن النهر المنسوب ليزيد وسَّع ومدد في عهد الخليفة يزيد (راجع مقالته في اقنيـة الري المتفرعة عـن نهر بردى في مؤلف دمشق ، دراسات تاريخية واثرية ، دمشق ١٩٨٠ ، ص ٤٦ ٠ واستشهد الدكتور قتيبة الشهابي بابن طولون ، العلائق الجوهرية ، ص ٦٦٣ ، في توكيد ذلك (راجع دمشق تاريخ وصور ، ص ٩) ٠

١٩ـ هناك فرق بين الانباط والنبيط فالآخرون متاخرون عن الأولين ستة قرون ، ونبيط اهـل الشام هم العاملون في الزراعة (راجع مقالنا عن الأنباط في الموسوعة الفلسطينية) ٠

٢٠ـ راجع ح٠و٠ بورسوك ، الولاية العربية الرومانية ، ص ٦٢ (ثبت المرجع) ٠

٢١ـ المرجع السابق ، ص ٦٩ ٠

٢٢ـ كارلوس شد ، سلالات حمص ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٢٣ (ثبت المراجع) ٠

٢٣ـ ان هذا التنظيم لا يستدعي بالضرورة ان نتصور ان الشوارع كلها كانت محفوفة بالأروقة المحمولة على اعمدة ، فهذا الشكل متاخر يعود لزمن الرومان وبالأحرى لزمن الأباطرة السيفريين السوريين ٠

٢٤ـ ن٠ اليسييف ، مادة دمشق في الموسوعة الاسلامية ، ص ٢٨٧ ٠ ويذكر الأستاذ بشير زهدي أن مكانها في ساحة الدوامنة دون أن يذكر المصدر ٠ راجع نـدوة دمشق القديمة ١٩٨٢ ، ص ٢١٠ ٠

٢٥ـ وبصورة خاصة سوفاجيه ، سريا ١٩٤٩ ودورثي زاك ، دمشق ، ميانس ١٩٨٩ والمناقشة في مقال دودينو ، لوبلان غاليه وفيلنوف عن مشهد سورية القديم (مثل دمشق) سريا ٢/٦٧ (١٩٩٠) ص ٣٤٩ وما بعدها (راجع ثبت المراجع) ٠

٢٦ـ هذا النبع ككل الينابيع تقريباً في الأرض الكنعانية كان مقدساً ٠ وكان يعتبر معبداً بذاته وقام فوقه معبد لربات الماء في العصر الكلاسيكي ٠

٢٧ـ كارلوس شد ، ص ٤٠ ٠

٢٨ـ عن بيغانيول ، تاريخ روما ، ص ٣٧٣ـ٣٧٤ ، عـن كارلوس شد ، ص ١١٠ (راجع ثبت المراجع) ٠

٢٩ـ أطلق في القرن الثاني على جوبيتير اسم (اوبتيموس ماكسيموس جوبيتير الدمشقي) عن ر٠ دوسو ، معبد جوبيتير الدمشقي ، مجلة سريا ، ٣ (١٩٢٢) ص ٢٢٢ (ثبت المراجع) ٠

٣٠ـ هنري سيريغ ، الآثار السورية ، الجزء ٤ ، ص ١٠١ ، (ثبت المراجع) ٠

٣١ـ من هذه الكتابات كتـابة طريفة منقولة غالباً في باب الغزالية في الجامع الأموي٠ يثني فيها الكاهن الأعظم للمعبد على الدمشقيين الذين « دللوا بافضل الأرباب الجليلة عـن نفوس تفيض بالتقوى » ويدعو لهـم بطـول العمر ٠ نشر هذه الكتابة وادينغتون في مؤلفه عن الكتابات اليونانية واللاتينية في سورية برقم ٢٩٤٥ وراجعها لنا الصديق كرايزيمر من المعهد الفرنسي للآثار بدمشق (راجع ثبت المراجع) ٠

٣٢ـ هذه الخصائص تتمثل بخاصة في فخامة البناء والباحات الداخلية الرحيبة والبوابات الفخمة والحجرة المخصصة للمعبود داخل الهيكل المركزي والنوافذ والشرفات ٠ راجع على سبيل المثال مؤلفنا عن معبد نبو في تدمر والمراجع الواردة فيه (ثبت المراجع) ٠

٣٣ـ ر٠ دوسو ، معبد جوبيتر المذكور سابقا ، ص ٢٢٤ (ثبت المراجع) ٠

٣٤ـ راجع مقالنا نيكيتا اليسييف في الموسوعة الاسلامية المذكورة سابقا ، ص ٢٢٤ ٠

٣٥ـ راجع كتابنا عن أبولودور الدمشقي من منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٠ ، وبخاصة ص ١٨/١٧ ٠

٣٦ـ سميت آيلاكا بيتولينا وشيد مكان هيكل اليهود معبداً لجوبيتر ٠

٣٧ـ ويحمل الباب القبلي للمعبد القديم نماذج بديعة لهذه التزيينات والتي اختلف سابقا على تاريخها وأرخت أخيراً بالمقارنة مع المعابد السورية المؤرخة ، راجع بحث فرايبرغر المعرب من قبل قاسم طوير (ثبت المراجع) ٠

٣٨ـ عن جورج حداد ، الحوليات الأثرية السورية ، المجلد ١ ، الجزء ٢ (١٩٥١) ص ٢٧٣ ٠

٣٩ـ راجع ما قبله ٠

٤٠ـ نقول الاسوار الجديدة لأنه لا بد أن تكون لها أسوار أقدم من زمن السور الروماني ٠ ويتبع الباحثون نظرية جان سوفاجيه عن الشكل المستطيل لأسوار دمشق دونبرهان أثري أو نص كتابي ويعارض ذلك شيفيدين من جامعة كاليفورنيا الذي يقول ان الأسوار تتبع تضاريس المدينة التي تساعد على الدفاع ٠ وهذا هو الحال في أسوار دمشق التي لم يكن مسقطها مستطيلا بل أشبه بالبيضوي٠ وهدم العباسيون هذا السور وجدده نورالدين زنكي في القرن الثاني عشر الميلادي (راجع دمشق دراسات تاريخيةالمذكورة سابقا ، ص ١٧١/١٧٠) ٠

٤١ـ قد يكون نهر قنوات قد شق أيام الأنباط اذا صح أن حيهم في شرق المدينة ٠ وفي اعتقادنا اسم قنوات جمع قناة /قناتا/ كاناليس ملتبس الاصل ٠ وفي راي ايكوشان اناسم نهر قنوات القديم قينية (راجع د٠ صفوح خير ، تطوير توزيع المياه في مدينة دمشق ، الحوليات الأثرية العربيةالسورية ٣٥ (١٩٨٥) ص ٢٢٧ ٢ أما بانياس الذي يتصور البعض انه تحريف يوناني لاسم أبانا (بردى أو فرعمنه) فاننا نعتقد أن الاسم أتى من الحامات كما هي الحال في اسم بانياس الساحل ٠

٤٢ـ يشتق نيكيتا اليسييف ديماس من ديموسيون ومعناه سوق الدهن والواقع أن ديماس في الآرامية تعني السرداب ببساطة ٠ ومعنى الثاني الفواخير والثالث مكان صنعوبيع الفوسكا وهي نوع من الأدوات الزراعية (أو الحربية) بثلاثة رؤوس راجع مقالة دمشق في الموسوعة الاسلامية ، ص ٢٨٧ ٠

٤٣ـ سمي بحي الخراب من جراء خراب هذه الناحية من المدينة خلال محنة المغول في القرن الرابع عشر الميلادي ، ومن الزلزال الذي أصاب دمشق عام ١٧٥٩ ، راجع نسيب صليبي ، تنقيبات حي الخراب في دمشق ، الحاشية ٣ و ٤ ، الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٣٥ (١٩٨٥)ص ١١٩ وما بعدها ٠ عن دهمان ومحمد كرد علي ٠

٤٤ـ راجع نسيب صليبي ، المقال المذكور آنفا ، ص ١٢٢ ٠

٤٥ـ المرجع السابق ، ص ١٢٢ ٠

★ ★ ★

العنـاوين المفصلة لبعض المراجـع المذكورة في النص :

SAUVAGET, J. Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, Revue des Etudes Islamiques, VIII, 1934, PP. 422-480.

WATZINGER, C. & WULZINGER, K. DAMASCUS Die Antike Stadt. Berlin, Leipzig, 1921.

CHAD, Carlos, Les dynastes d'Emèse, Beyrouth, 1972.

ELISSÉEFF, Nikita, Damas, Encyclopédie de l'Islam.

BOWERSOCK, G. W. Roman Arabia, Cambridge Mas, London 1983.

SEYRIG, Henri, Antiquités Syriennes IV.

BOUNNI, Adnan, Le sanctuaire de Nabu à Palmyre, thèse de Doctorat d'État, Paris, 1987.

DUSSAUD, René, Temple de Jupiter Damascenien, Syria 3, 1922.

Corpus Insicriptonium Semiticarum, Pars Secunda.

JOUGUET, Pierre, L'imperialisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient, Paris, (1972).

FOX, L. F. Alexander the Great, London, 1974.

COOK, J. M., The Persian Empire, London, 1983.

SAUVAGET, J. Plan antique de Damas, Syrie. T. XXVI, 1949, p. 314 ss.

DODINET, M. LEBLANC, J. B., VALLAT, J. P. & VILLENEUVE, F.

Le paysage antique en Syrie, L'exemple de Damas, Syrie LXVII/2 (1990) 339 ss.

خير صفوح ، تطور توزيع المياه في مدينة دمشق ، الحوليات الاثرية العربية السورية ٣٥ (١٩٨٥) ، ص ٢١١ـ٢٣٠ .

البني عدنان ، أبولودور الدمشقي أعظم معمار في التاريخ القديم ، دمشق ١٩٩٠ .

صليبي نسيب ، تنقيبات حي الخراب في دمشق ، الحوليات الأثرية العربية السورية ، ٣٥ ، (١٩٨٥) ، ص ١١٩ـ١٣٨ .

حداد جورج ، دمشق في كتابات المؤلفين الكلاسيكيين والعرب، الحوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد ١ ، الجزء ٢ (١٩٥١) ص ٢٧٠ـ٢٧٤ .

عبدالحق سليم ، الفن الاغريقي وآثاره في الشرق ، مطبوعاتالمديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق (١٩٥٠) .

الشهابي قتيبة ، دمشق ، تاريخ وصور ، دمشق (١٩٩٠) .

الصفدي شفيق ، اقنية الري المتفرعة عن نهر بردى ، دمشق ، دراسات تاريخية واثرية ، دمشق ، (١٩٨٠) ، ص ٤٥ـ٨٥ .

وقائع ندوة دمشق القديمة ، نقابة المهندسين ، دمشق ، (١٩٨٢) .

بعد انهاء محاولتنا في دراسة هده الفترة من تاريخ دمشق وارسالها للمجلة اهدانا الزميل والصديق الأستاذ الدكتور مفيد رائف العابد كتابه الجديد القيّم عن « سوريةفي عصر السلوقيين ، دار شمال ، دمشق ، ١٩٩٣ » واننا اذ نثبته هنا كمرجع أساسي لهذه الفترة الهامة نؤكد اننا تمنينا لو أسعدنا الحظ بالاطلاععليه قبلهذا الوقت لاغناء بحثنا .

(المؤلف)